(٦)

حــول الغنــاء الدينــى

أو

غنــاء الصــوفيــة

obeikandl.com

obeikandl.com

(٦) حول الغناء الدينى
أو
غناء الصوفية

ما تحدثنا عنه فيما سلف من هذا الكتاب عن الغناء، كان المعنىّ به أساسا هو (غناء اللهو والترويح). وهو جُلُّ الغناء الذى تعرفه كل الشعوب فى كل أنحاء العالم، ويهتم به رجالها ونساؤها وأطفالها.

ولكن هناك نوع من الغناء له صفة خاصة، ووضع خاص، وغاية معينة غير غايات الغناء العام الشائع والمعروف.

أعنى بهذا الغناء الخاص: (الغناء الدينى) أى الغناء الذى يدور حول الدين. فالدين موضوعه، والدين هدفه. فهو يدور حول حب الله تبارك وتعالى، وحب رسوله ﷺ، وحب الصالحين من عباد الله، والتعلق بالدار الآخرة، ونعيم الجنة، والحديث عن المعاني الربانية والإيمانية التى جاء بها الدين.

ما حكم هذا النوع من الغناء، وخصوصا أنه يستخدم لغة الغزل والعشق، التى يستخدمها العشاق فى شعرهم من ذكر الوصال والهجر، والخدود القدود؟ وما حكم إنشاده فى المساجد؟ وما حكم ما يصحبه من الآلات من الدف واليراع وغيرها؟ وما يلابسه من التصفيق، أو الرقص؟ وما حكم التواجد عند سماعه حتى قد يغشى عليه؟ هل يدخل هذا فى التعبد والتنسك والتقرب إلى الله تعالى، ولاسيما أنه قد يحرك القلوب، ويثير الشوق إلى الله، ويوقظ الوجدان، ويحيى العواطف الدينية، وينبه الحاسة الروحية؟ أو يعتبر هذا اللون أمرا محْدثاً، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار؟ ولا سيما أن كثيرا ما يدخل فيه التصنع والرياء.

اختلاف العلماء فى الغناء الدينى:

لقد اختلف العلماء فى حكم هذا اللون من الغناء والإنشاد، كما اختلفوا

فى غناء اللهو والترويح، بل ربما أشد، فمن العلماء من رخص فى غناء اللهو، أو لم يشدد فيه كثيرا، ولكنه شدد غاية التشديد فى الغناء الدينى، الذى يتقرب به صانعوه إلى الله تعالى فى زعمهم، وأنكر على أهله أشد الإنكار.

رأى ابن تيمية:

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن سماع الصوفية وما يحدث فيه من اضطراب واختلاج وإغماء، ومن تواجد ورقص إلخ.

فأجاب: «السماع» الذى أمر الله به ورسوله، واتفق عليه سلف الأمة ومشايخ الطريق: هو سماع القرآن، فإنه سماع النبيين، وسماع العالمين، وسماع العارفين، وسماع المؤمنين، قال سبحانه وتعالى: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا**﴾ [مريم: ٥٨] وقال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا**﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩].

وقال تعالى: ﴿**وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ**﴾ [المائدة: ٨٣] وقال تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ**﴾ [الأنفال: ٢-٤] وقال سبحانه وتعالى: ﴿**وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ [الأعراف: ٢٠٤] وقال تعالى﴿**وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ**﴾ [الأحقاف: ٢٩].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ** ﴾ وقال سبحانه وتعالى: ﴿ **الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ** ﴾ [الزمر:١٨] وهذا كثير فى القرآن.

وكما أثنى سبحانه وتعالى على هذا السماع، فقد ذم المعرضين عنه، كما قال: ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ** ﴾ [فصلت:٢٦] وقال: ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا** ﴾ [وقال سبحانه وتعالى: ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ** ﴾ وقال: ﴿ **إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ** ﴾ [الأنفال:٢٢، ٢٣] وقال سبحانه وتعالى: ﴿ **وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾.

وهذا كثير فى كتاب الله، وسنة رسول الله – ﷺ – وإجماع المسلمين يمدحون من يقبل على هذا السماع، ويحبه ويرغب فيه ويذمون من يعرض عنه ويبغضه؛ ولهذا شرع الله للمسلمين فى صلاتهم سماع المغرب، والعشاء الآخر.

وأعظم سماع فى الصلوات سماع الفجر الذى قال الله فيه: ﴿ **وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا** ﴾ [الإسراء:٧٨]

وهو مستحب لهم خارج الصلوات، وروى عن النبى ﷺ: «أنه خرج على أهل الصفة، وفيهم واحد يقرأ وهم يستمعون، فجلس معهم». وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا اجتمعوا أمروا واحدا منهم يقرأ والباقون يستمعون.

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول: يا أبا موسى! ذكرنا ربنا، فيقرأ وهم يستمعون، ومر النبى ﷺ بأبى موسى وهو يقرأ: فجعل يستمع لقراءته،

وقال: «لقد أوتى هذا مزمارا من مزامير داود» وقال: «يا أبا موسى! لقد مررت بك البارحة وأنت تقرأ فجعلت استمع لقراءتك» فقال: لو علمت أنك تستمع لقراءتى لحبرته لك تحبيرا أى: حسنته لك تحسينا.

وقال النبى ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن». «زينوا القرآن بأصواتكم» وقال: «لله أشد أذنا للرجل حسن الصوت، من صاحب القينة إلى قينته»، والآثار فى هذا كثيرة.

وهذا سماع له آثار إيمانية من المعارف القدسية، والأحوال الزكية يطول شرحها، ووصفها، وله فى الجسد آثار محمودة، من خشوع القلب، ودموع العين، واقشعرار الجلد، وقد ذكر الله هذه الثلاثة، فى القرآن، وكانت موجودة فى أصحاب رسول الله - ﷺ - الذين أثنى عليهم فى القرآن، ووجد بعدهم فى التابعين آثار ثلاثة: الاضطراب، والاختلاج، والإغماء، - أو الموت والهيام؛ فأنكر بعض السلف ذلك - إما لبدعتهم، وإما لحبهم.

وأما جمهور الأئمة والسلف فلا ينكرون ذلك؛ فإن السبب إذا لم يكن محظورا كان صاحبه فيما تولد عنه معذورا، لكن سبب ذلك قوة الوارد على قلوبهم، وضعف قلوبهم عن حمله فلو لم يؤثر السماع لقسوتهم كانوا مذمومين، كما ذم الله الذين قال فيهم: ﴿ **ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ** ﴾ وقال: ﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾ ولو أثر فيهم آثارا محمودة لمن يجذبهم عن حد العقل، لكانوا كمن أخرجهم إلى حد الغلبة كانوا محمودين أيضاً ومعذورين.

أما سماع القاصدين لصلاح القلوب فى الاجتماع على ذلك: إما نشيد مجرد، نظير الغبار، وإما بالتصفيق، ونحو ذلك. فهو السماع المحدث فى الإسلام، فإنه أحدث بعد ذهاب القرون الثلاثة الذين أثنى عليهم النبى - صلى الله عليه

وسلم – حيث قال: «خير القرون: القرن الذى بعثت فيه، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» وقد كرهه أعيان الأمة ولم يحضره أكابر المشايخ.

وقال الشافعى – رحمه الله –: خلفت ببغداد شيئا أحدثته الزنادقة يسمونه التغبير يصدون به الناس عن القرآن.

وسئل عنه الإمام أحمد بن حنبل فقال: هو محدث أكرهه، قيل له: إنه يرق عليه القلب. فقال: لا تجلسوا معهم. قيل له: أيهجرون؟. فقال: لا يبلغ بهم هذا كله. فبين أنه بدعة لم يفعلها القرون الفاضلة، لا فى الحجاز، ولا فى الشام، ولا فى اليمن، ولا فى مصر، ولا فى العراق، ولا خراسان. ولو كان للمسلمين به منفعة فى دينهم لفعله السلف.

ولم يحضره مثل: إبراهيم ابن أدهم، ولا الفضيل بن عياض، ولا معروف الكرخى، ولا السرى السقطى، ولا أبو سليمان الدارانى، ولا مثل الشيخ عبد القادر، والشيخ عدى، والشيخ أبى البيان، ولا الشيخ حياة، وغيرهم؛ بل فى كلام طائفة هؤلاء – كالشيخ عبد القادر وغيره – النهى عنه. وكذلك أعيان المشايخ.

وقد حضره من المشايخ طائفة، وشرطوا له المكان، والإمكان، والخلان، والشيخ الذى يحرس من الشيطان، وأكثر الذين حضروه من المشايخ الموثوق بهم رجعوا عنه فى آخر عمرهم، كالجنيد فإنه حضره وهو شاب، وتركه فى آخر عمره. وكان يقول: من تكلف السماع فتن به، ومن صادفه السماع استراح به، فقد ذم من يجتمع له، ورخص فيمن يصادفه من غير قصد، ولا اعتماد للجلوس له.

وسبب ذلك أنه مجمل ليس فيه تفصيل، فإن الأبيات المتضمنة الحب والوصل والهجر والقطيعة والشوق والتتيم، والصبر على العذل واللوم ونحو ذلك، هو قول مجمل، يشترك فيه محب الرحمن، ومحب الأوثان، ومحب الإخوان، ومحب الأوطان، ومحب النسوان، ومحب المردان، فقد يكون فيه

منفعة إذا هيج القاطن، وأثار الساكن، وكان ذلك مما يحبه الله ورسوله، لكن فيه مضرة راجحة على منفعته: كما فى الخمر والميسر، ففيهما إثم كثير، ومنافع للناس، وإثمهما أكبر من نفعهما.

فلهذا لم تأت به الشريعة التى لم تأت إلا بالمصلحة الخالصة أو الراجحة.

وأما ما تكون مفسدته غالبة على مصلحته، فهو بمنزلة من يأخذ درهما بدينار، أو يسرق خمسة دراهم، ويتصدق بدرهمين.

وذلك أن يهيج الوجد المشترك، فيثير من النفس كوامن تضره آثارها ويغذى النفس ويفتنها، فتعتاض به عن سماع القرآن، حتى لا يبقى فيها محبة لسماع القرآن ولا التذاذ به، ولا استطابة له، بل يبقى فى النفس بغض لذلك، واشتغال عنه، كمن شغل نفسه بتعلم التوراة والإنجيل، وعلوم أهل الكتاب، والصابئين واستفادته العلم والحكمة منها، فأعرض بذلك عن كتاب الله وسنة رسوله، إلى أشياء أخرى تطول.

فلما كان هذا السماع لا يعطى بنفسه ما يحبه الله ورسوله من الأحوال والمعارف، بل قد يصد عن ذلك، ويعطى ما لا يحبه الله ورسوله، أو ما يبغضه الله ورسوله، لم يأمر الله به ولا رسوله، ولا سلف الأمة ولا أعيان مشايخها.

ومن نكته أن الصوت يؤثر فى النفس بحسنه: فتارة يفرح، وتارة يحزن، وتارة يغضب، وتارة يرضى، وإذا قوى أسكر الروح فتصير فى لذة مطربة من غير تمييز، كما يحصل للنفس إذا سكرت بالرقص، وللجسد أيضا إذا سكر بالطعام والشراب، فإن السكر هو الطرب الذى يؤثر لذة بلا عقل، فلا تقوم منفعته بتلك اللذة بما يحصل من غيبة العقل، التى صدت عن ذكر الله وعن الصلاة، وأوقعت العداوة والبغضاء.

و«بالجملة» فعلى المؤمن أن يعلم: أن النبى ﷺ لم يترك شيئا يقرب إلى الجنة إلا وقد حدث به، ولا شيئا يبعد عن النار إلا وقد حدث به، وإن هذا السماع لو كان مصلحة لشرعه الله ورسوله، فإن الله يقول: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ**

دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] وإذا وجد فيه منفعة لقلبه، ولم يجد شاهد ذلك، لا من الكتاب ولا من السنة، لم يلتفت إليه.

قال سهل بن عبد الله التسترى: كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل.

وقال أبو سليمان الدارانى: إنه لتلم بقلبى النكتة من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين عدلين: الكتاب، والسنة، قال أبو سليمان أيضاً: ليس لمن ألهم شيئا من الخير أن يفعله، حتى يجد فيه أثرا، فإذا وجد فيه أثرا كان نورا على نور.

وقال الجنيد بن محمد: علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، فمن لم يقرأ القرآن ولم يكتب الحديث، لا يصلح له أن يتكلم فى علمنا.

و« أيضاً » فإن الله يقول فى الكتاب ﴿ **وَمَا كَانَ صَلاتُهم عِندَ البَيْتِ إلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيةً** ﴾ [الأنفال: ٣٥] قال السلف من الصحابة والتابعين: « المكاء » كالصفير ونحوه، من التصويت، مثل الغناء، و« التصدية » التصفيق باليد، فقد أخبر الله عن المشركين أنهم كانوا يجعلون التصدية والغناء لهم صلاة، وعبادة وقربة، يتعاضون به عن الصلاة التى شرعها الله ورسوله.

وأما المسلمون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان: فصلاتهم وعبادتهم القرآن، واستماعه، والركوع والسجود، وذكر الله ودعاؤه، ونحو ذلك مما يحبه الله ورسوله، فمن اتخذ الغناء والتصفيق عبادة وقربة فقد ضاهى المشركين فى ذلك ، وشابههم فيما ليس من فعل المؤمنين: المهاجرين والأنصار، فإن كان يفعله فى بيوت الله فقد زاد فى مشابهته أكبر وأكبر، واشتغل به عن الصلاة وذكر الله ودعائه، فقد عظمت مشابهته لهم، وصال له كفل عظيم من الذم الذى دل عليه قوله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ صَلاتُهم عِندَ البَيْتِ إلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيةً** ﴾ [الأنفال: ٣٥]

لكن قد يغفر له ذلك لاجتهاده، أو لحسنات ماحية، أو غير ذلك، فيما يفرق فيه (بين) المسلم والكافر، لكن مفارقته للمشركين فى غير هذا لا يمنع أن يكون مذموما خارجا عن الشريعة، داخلا فى البدعة التى ضاهى بها المشركين،

فينبغى للمؤمن أن يتفطن لهذا، ويفرق بين سماع المؤمنين الذى أمر الله به ورسوله، وسماع المشركين الذى نهى الله عنه ورسوله.

ويعلم أن هذا السماع المحدث هو من جنس سماع المشركين، وهو إليه أقرب منه إلى سماع المسلمين، وإن كان قط غلط فيه قوم من صالحى المسلمين، فإن الله لا يضيع أجرهم وصلاحهم، لما وقع من خطئهم، فإن النبى ﷺ قال: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد الحاكم فأخطأ فله أجر واحد».

وهذا كما أن الجماعة من السلف قاتلوا أمير المؤمنين عليا بتأويل، وعلى بن أبى طالب وأصحابه أولى بالحق منهم، وقد قال فيهم: من قصد الله فله الجنة.

وجماعة من السلف والخلف استحلوا بعض الأشربة بتأويل - وقد ثبت بالكتاب والسنة تحريم ما استحلوه - وإن كان خطؤهم مغفورا لهم.

والذين حضروا هذا السماع من المشايخ الصالحين شرطوا له شروطا لا توجد إلا نادرا، فعمامة هذه السماعات خارجة عن إجماع المشايخ، ومع هذا فأخطئوا والله يغفر لهم خطأهم فيما خرجوا به عن السنة، وإن كانوا معذورين.

والسبب الذى اخطأوا فيه أوقع أمما كثيرة فى المنكر الذى نهوا عنه. وليس للعالمين شرعة ولا منهاج، ولا شريعة ولا طريقة أكمل من الشريعة التى بعث الله بها نبيه محمدا - ﷺ - كما كان يقول فى خطبته: «خير الكلام كلام الله، وخير الهدى هدى محمد ﷺ».

وأما «الرقص» فلم يأمر الله به ولا رسوله، ولا أحد من الأئمة، بل قد قال الله فى كتابه: ﴿**واقصد فى مشيك**﴾ وقال فى كتابه: ﴿**وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا**﴾ أى: بسكينة، ووقار.

وإنما عبادة المسلمين الركوع والسجود؛ بل الدف والرقص فى الطابق لم يأمر الله به ولا رسوله، ولا أحد من سلف الأمة؛ بل أمروا بالقرآن فى الصلاة، والسكينة، ولو ورد على الإنسان حال يُغلَب فيها حتى يخرج إلى حالة خارجة عن المشروع، وكان ذلك الحال بسبب مشروع، كسماع القرآن ونحوه، سلم إليه

ذلك الحال كما تقدم، فأما إذا تكلف من الأسباب ما لم يؤمر به، مع علمه بأن يوقعه فيما لا يصلح له: مثل شرب الخمر، مع علمه أنها تسكره، وإذا قال: ورد علىّ الحال، وأنا سكران، قيل له: إذا كان السبب محظورا، لم يكن السكران معذورا.

فهذه الأحوال الفاسدة من كان فيها صادقا فهو مبتدع، ضال، من جنس خفراء العدو، وأعوان الظلمة، من ذوى الأحوال الفاسدة الذين ضارعوا عباد النصارى، والمشركين، والصابئين، فى بعض ما لهم من الأحوال، ومن كان كاذبا فهو منافق ضال. انتهى[1].

رأى ابن القيم:

ومن الذين شددوا وبالغوا فى التشديد وأجلبوا بخيلهم ورجلهم فى مقاومة غناء المتصوفة: الإمام ابن القيم رحمه الله، وهذا ظاهر فيما كتبه عن الغناء فى كتابه (إغاثة اللهفان من مكايد الشيطان). فهو قد شدد فى أمر الغناء، ليسد الباب على المتصوفة الذين أدخلوا فى الدين مالم يأذن به الله، والذين أنكر عليهم ابن القيم وشيخه ابن تيمية أمورا كثيرة منها هذا الغناء. ولا سيما إذا كان مع الآلات، وكان فى المساجد.

قال ابن القيم فى حملته على المتصوفة وغنائهم:

«ومن مكايد عدو الله ومصايده، التى كاد بها من قل نصيبه من العلم والعقل والدين وصاد بها قلوب الجاهلين، المبطلين: سماع المكاء، والتصدية، والغناء بالآلات المحرمة، الذى يصد القلوب عن القرآن، ويجعلها عاكفة على الفسوق والعصيان. فهو قرآن الشيطان، والحجاب الكثيف عن الرحمن، وهو رقية اللواط والزنى، وبه ينال العاشق الفاسق من معشوقه غاية المنى. كاد به الشيطان النفوس المبطلة؛ وحسنه لها مكرا منه وغرورا. وأوحى إليها الشبه الباطلة على حسنه فقبلت وحيه واتخذت لأجله القرآن مهجورا. فلو رأيتهم عند ذياك

---

(١) مجموع الفتاوى ج١١ ص ٥٨٧ - ٦٠٠.

السماع وقد خشعت منهم الأصوات، وهدأت منهم الحركات، وعكفت قلوبهم بكليتها عليه، وانصبت انصبابة واحدة إليه، فتمايلوا له ولا كتمايل النشوان، وتكسروا في حركاتهم ورقصهم، أرأيت تكسر المخانيث والنسوان؟ ويحق لهم ذلك؛ وقد خالط خماره النفوس، ففعل فيها أعظم ما تفعله حميا الكؤوس. فلغير الله بل للشيطان قلوب هناك تمزق، وأثواب تشقق، وأموال في غير طاعة الله تنفق. حتى إذا عمل السكر فيهم عمله، وبلغ الشيطان منهم أمنيته وأمله، واستفزهم بصوته وحيله، وأجلب عليهم برجله وخيله، وخز في صدورهم وخزا. وأزهم إلى ضرب الأرض بالأقدام أزا، فطورا يجعلهم كالحمير حول المدار، وتارة كالدباب ترقص وسيط الديار. فيا رحمتا للسقوف والأرض من دك تلك الأقدام، ويا سوأتا من أشباه الحمير والأنعام. ويا شماتة أعداء الإسلام بالذين يزعمون أنهم خواص الإسلام! قضوا حياتهم لذة وطربا، واتخذوا دينهم لهوا ولعبا. مزامير الشيطان أحب إليهم من استماع سور القرآن. لو سمع أحدهم القرآن من أوله إلى آخره لما حرك له ساكنا، ولا أزعج له قاطنا، ولا أثار فيه وجدا. ولا قدح فيه من لواعج الشوق إلى الله زندا، حتى إذا تلى عليه قرآن الشيطان وولج مزموره سمعه، تفجرت ينابيع الوجد من قلبه على عينيه فجرت، وعلى أقدامه فرقصت، وعلى أيديه فصفقت، وعلى سائر أعضائه فاهتزت وطربت، وعلى أنفاسه فتصاعدت، وعلى زفراته فتزايدت، وعلى نيران أشواقه فاشتعلت. فيا أيها الفاتن المفتون، والبائع حظه من الله بنصيبه من الشيطان صفقة خاسر مغبون؛ هلا كانت هذه الأشجان عند سماع القرآن؟ وهذه الأذواق والمواجيد عند قراءة القرآن المجيد؟ وهذه الأحوال السنيات، عند تلاوة السور والآيات؟ ولكن كل امرىء يصبو إلى ما يناسبه، ويميل إلى ما يشاكله، والجنسية علة الضم قدرا وشرعا، والمشاركة سبب الميل عقلا وطبعا، فمن أين هذا الإخاء والنسب؟ لولا التعلق من الشيطان بأقوى سبب؟ ومن أين هذه المصالحة التي أوقعت في عقد الإيمان وعهد الرحمن خللا؟: ﴿ **أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً** ﴾

[الكهف : ٥٠]

ولقد أحسن القائل:

تلى الكتاب، فأطرقوا، لا خيفة   لكنه إطراق ساه لا هى

وأتى الغناء، فكالحمير تناهقوا   والله ما رقصوا لأجل الله

دف ومزمار، ونغمة شادن   فمتى رأيت عبادة بملاهى؟

وقال آخر:

برئنا إلى الله من معشر   بهم مرض من سماع الغنا

وكم قلت: يا قوم، أنتم على   شفا جرف ما به من بنا

وتكرار ذا النصح منا لهم   لنعذر فيهم إلى ربنا

فلما استهانوا بتنبيهنا   رجعنا إلى الله فى أمرنا

فعشنا على سنة المصطفى   وماتوا على (تنتنا تنتنا)!

قال: ولم يزل أنصار الإسلام وأئمة الهدى، تصيح بهؤلاء من أقطار الأرض، وتحذر من سلوك سبيلهم، واقتفاء آثارهم، من جميع طوائف الملة[1]، انتهى.

وقد أطال ابن القيم فى الرد على هؤلاء الذين تقربوا إلى الله بالغناء، وهو ما جعله يشدد كل التشديد فى أمر الغناء.

هذا ما ذكره فى (إغاثة اللهفان). أما فى كتابه الآخر الخاص بالسماع، والذى نشر بعنوان (كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء) فقد وسع فيه القول فى الرد على أصحاب السماع من الصوفية.

ابن القيم يرد على اعتراضات الصوفية:

وقد ذكر ابن القيم فى كتابه هذا اعتراضات أصحاب الغناء الصوفى على خصومهم، ثم رد عليها واحدا بعد الآخر. ما يتبين فيما يلى:

اعتراض بحضور الأولياء والصالحين هذا السماع:

قال ابن القيم فى كتابه فى السماع:

(١) إغاثة اللهفان جـ١ / ٢٤٢ وما بعدها.

obeikandl.com

(فإن قال قائل: فهذا السماع قد حضره جماعة من الأولياء، وممن لا يشك فى علو منزلته عند الله مثل الجنيد وأصحابه، والشبلى وأمثاله. مثل يوسف بن الحسين الرازى، ومن قبله مثل ذى النون المصرى وغيرهم، كيف يسوغ لكم تخطئتهم والإنكار عليهم؟

أولياء الله لم يحضروا هذا السماع:

فالجواب من وجوه:

أحدها: إن هذا السماع المسئوول عنه على هذا الوجه، قد برَّأ الله منه أولياءه وأعاذهم منه، وحاشاهم أن يكون أحد منهم حضره أو رضيه أو أباحه، وإنما السماع الذى حضره من حضره منهم، أن جماعة كانوا يجتمعون يذكرون الله والدار الآخرة، وأعمال القلوب وآفاتها، ومصححات الأعمال والأحكام والفروق والوجد والإرادة، فإذا رقَّت قلوبهم، وتحركت هممهم، واشتاقت نفوسهم إلى السير، قام حاد يحدو أرواحهم وقلوبهم ليطيب لها السير إلى الله والدار الآخرة، ويذكرها منازلها الأولى كما قيل:

وحى على جنات عدن فإنها ... منازلك الأولى وفيها المُخَيَّمُ

ولكننا سبى العدوى فهل ترى ... نعود إلى أوطاننا ونُسَلِّم؟

وإلى مثل هذا أشار الإمام أحمد فى الإباحة؛ قال أبو حامد الخلقانى: قلت لأحمد بن حنبل: يا أبا عبد الله هذه القصائد الرقاق التى فى ذكر الجنة والنار؛ أى شيء تقول فيها؟ فقال: مثل أى شيء؟ قلت: يقولون:

إذا ما قال لى ربى ... أما استحييت تعصينى

وتخفى الذنب من خلقى ... وبالعصيان تأتينى؟

فقال: أعد علىَّ فأعدت عليه، فقام ودخل بيته ورد الباب، فسمعت نحيبه من داخل وهو يردد البيتين[1]، وأمثال هذه الأشعار التى تتضمن إثارة فى القلب

---

(١) تلبيس إبليس ص ٣١٣.

من الحب والخوف والرجاء والطلب والأنس والشوق والقرب وتوابعها، فصادف سماع هذه الأشعار من قلوبهم حبا وطلبا، فأثاره إثارة ممتزجة بحظ النفس، وهو نصيبها من اللذة والطرب الذى يحدثه فى السماع، فيظن تلك اللذة والطرب زيادة فى صلاح القلب وإيمانه وحاله الذى يقربه إلى الله، وهو محض حظ النفس.

فهذا منشأ الغلط الذى عرض للقوم، كما سيأتى تقريره وبسطه إن شاء الله، وهذا هو الذى أنكره العارفون من القوم، وتاب منه من تاب منهم، وحذروا منه، وقالوا: إن مضرته للقلب أكثر من نفعه، وإفساده له أكثر من إصلاحه، وسيأتى عن قُرْب إن شاء الله تقرير هذا الحكم [فى] (١) الذوق والوجد.

حضور بعض الصالحين ليس حجة على غيرهم:

الوجه الثانى من الجواب: أن هذا السماع وإن كان قد حضره وفعله من لا نشك فى دينه وصدقه وصلاحه، فقد أنكره من هو أفضل منهم عند الأمة، وأعلى شأنا، وأصدق حالا، وأعرف بالله وبأمره، فإن كان قد حضره وفعله مائة ولى لله. فقد أنكر عليهم أكثر من ألف ولى لله، فإن كان قد حضره أبو بكر الشبلى، فقد غاب عنه أبو بكر الصديق وإن كان قد حضره يوسف بن الحسين الرازى، فلم يحضره الفاروق الذى فرَّق الله به بين الحق والباطل عمر بن الخطاب، وإن كان قد حضره النورى فقد غاب عنه ذو النورين عثمان بن عفان، وإن كان قد شهده ذو النون المصرى فلم يشهده على بن أبى طالب الهاشمى، وإن كان قد حضره سيد الطائفة أبو القاسم الجنيد فقد صح عنه أنه تاب عنه وتركه قبل وفاته.

وإن كان قد فعله أضعاف هؤلاء، فقد غاب عنه المهاجرون والأنصار كلهم، وأهل بدر، وأهل بيعة الرضوان، وجميع أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين لهم بإحسان، وجميع أئمة الفقه والإفتاء، وجميع أئمة الحديث والسنة، وجميع أئمة التفسير، وجميع أئمة القراءة، وجميع أئمة الجرح والتعديل الذَّابين عن رسول الله ﷺ ودينه، فَمَنِ الناس إلا أولئك؟!

---

(١) ليست فى المطبوعة، والسياق يقتضيها.

فأى فريقينا أحق بأمنه إذا يبعث الله العباد ويجمع

فإن احتججتم بالرجال كاثرناكم بالواحد ألوفا مؤلفة، وإن استدللتهم بالقرآن، فهذا كتاب الله المجيد الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، وإن استندتم إلى الإسناد والحديث فسنذكر لكم منه ما يشفى صدر كل مُحِقٍّ، وإن لجأتم إلى الذوق والوجد حاكمناكم إليه، وبينا أنَّا أسعدبه منكم، وأن الذوق السليم والوجد الصحيح يحكم بأن فيه منفعة للنفس، ومضرة للقلب، ومضرته أكثر من نفعه كما سنبينه بالدليل الواضح، الذى لا مدفع له إن شاء الله.

اتفاق السماعاتية ليس حجة شرعية:

الوجه الثالث من الجواب: أنه لو اتفق عليه جميع الطائفة، وحضروه من أولهم إلى آخرهم لما كان لكم فى ذلك حجة أصلا، فإنهم بعض المسلمين، واتفاقهم لا يكون حجة على من سواهم من طوائف أهل العلم الذين سميناهم.

فمن قال من أهل الإسلام: إن اتفاق السماعاتية حجة شرعية يجب اتباعها؟! أو اتفاق الفقراء أو اتفاق الصوفية حجة، فهذا لم يقله أحد من المسلمين، ومن قاله فقد خرق إجماع المسلمين، فإن الحجة كتاب الله، وسنة رسوله وأقوال الصحابة، وإجماع الأمة.

أكثر المشايخ أنكروا السماع وعابوه:

الوجه الرابع: أن الصوفية والمشايخ لم تجتمع على ذلك، بل كثير منهم، أو أكثرهم أنكروه وعابوه وأمر باجتنابه.

قال أبو الحسن على بن عبدالله بن جَهْضَم فى كتابه بهجة الأسرار: حدثنى أبو عبدالله المقرى، قال: حدثنا عبد الله بن صالح، قال: قال لى الجنيد: إذا رأيت المريد يسمع السماع، فاعلم أن فيه بقايا من اللعب. وقال أبو عبدالله بن باكويه فى كتاب حكايات الصوفية: سمعت أحمد بن محمد البردعى، يقول: إذا رأيت المريد يسمع القصائد ويميل إلى الرفاهية فلا تَرْجُ خيره. قال الحافظ

أبو الفرج عبد الرحمن بن على (ابن الجوزى): هذا قول مشايخ القوم وإنما ترخص المتأخرون فيه حبا للهو. فتعدى شرهم من وجهين:

أحدهما: سوء ظن العوام بقدمائهم، لأنهم يظنون أن الكل كانوا هكذا.

الثانى: أنهم جرأوا العوام، فليس للعامى حجة إلا أن يقول: فلان يفعل كذا، قال: وقد تشبث حب السماع بقلوب خلق منهم فآثروه على قراءة القرآن، ورقَّت قلوبهم عنده ما لا ترق عند القرآن، وما ذاك إلا لتمكن هوى باطن، وغلبة طبع، وهم يظنون غير هذا.

ثم ساق من تاريخ الخطيب بإسناده إلى أبى نصر السَّرَّاج، قال: حكى لى بعض إخوانى عن أبى الحسين الدراج، قال: قصدت يوسف بن الحسين الرازى من بغداد، فلما دخلت الرى سألت عن منزله، فكل من أسأله عنه، يقول: أيش تفعل بذلك الزنديق، فضيقوا صدرى حتى عزمت على الانصراف، فبت تلك الليلة فى مسجد، ثم قلت: جئت هذا البلد فلا أقل من زيارته، فلم أسأل عنه حتى وقعت إلى مسجده وهو قاعد فى المحراب، وبين يديه رحل عليه مصحف، وهو يقرأ، فسلمت عليه فرد علىّ السلام، وقال: من أين؟ قلت: من بغداد، قصدت زيارة الشيخ، فقال: تحسن أن تقول شيئا، فقلت: نعم. فقلت:

رأيتك تبنى دائبا فى قطيعتى ولو كنت ذا حزم لهدمت ما تبنى

فأطبق المصحف، ولم يزل يبكى حتى ابتلت لحيته وثوبه، حتى رحمته من كثرة بكائه، ثم قال: يا بنى تلوم أهل الرى على قولهم يوسف بن الحسين الزنديق، ومن وقت الصلاة هو ذا أقرأ القرآن، لم يقطر من عينى قطرة، وقد قامت علىّ القيامة بهذا البيت!

من عدا الرسول ليس معصوما:

الوجه الخامس: أنه ما من أحد بعد الرسول ﷺ، إلا ومأخوذ منه ومتروك، ولا يقتدى بأحد فى أقواله وأفعاله وأحواله كلها إلا رسول الله ﷺ، فمن نزل غيره فى هذه المنزلة، فقد شرح بالضلالة والبدعة صدرا، ولا يغنى عنه ذلك الغير من

الله شيئا، بل يتبرأ منه أحوج ما يكون إليه؛ قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾

[البقرة: ١٦٦، ١٦٧]

وكل من بعد رسول الله ﷺ يجب عرض أقواله وأفعاله وأحواله على ما جاء به الرسول، فإن كانت مقبولة لديه قبلت، وإلا ردت.

فأبى الظالمون المفتونون إلا عرض ما جاء به الرسول ﷺ على أقوال الشيوخ وطريقتهم؛ فأضلهم، فعم بذلك المصاب، وعظمت المحنة واشتدت الرزية، واشتدت غربة الدين وأهله، وظن بهم الجاهلون أنهم هم أهل البدع، وأصحاب الطرائق والآراء هم أهل السنة، ويأبى الله إلا أن يقيم دينه، ويتم نوره، ويعلى كلمته، وكلمات رسوله، وينصر حزبه ولو كره المبطلون.

الذين حضروا السماع ليسوا من الأئمة الذين يقلدون:

الوجه السادس: أن من نقل عنه أنه حضر السماع من القوم، فليس فيهم رجل واحد يسوغ تقليده فى الدين؛ فإنه ليس فيهم إمام من أئمة التقوى والعلم الذين يسوغ تقليدهم فى الجملة.

وأعلى من حضره قوم لهم صدق وزهد وأحوال مع الله، ولكنهم ليسوا بمعصومين، ولا لهم قول يحكى مع أقوال العلماء الذين دارت الفتوى والحكم على أقوالهم.

وغاية أحدهم أن يكون حضوره له من السعى المغفور، الذى يغفره الله له لصدقه وكثرة حسناته وحسن نيته، فأما أن يتخذ قدوة وإماما فهذا باطل قطعا، إذ ليس من أهل الاجتهاد ومن له قول بين أهل العلم.

خالفهم من هو أجل وأكثر:

الوجه السابع: أنه لو فرض أنه من أهل الاجتهاد، وممن يسوغ العمل بقوله،

فقد خالفه من هو مثله أو أجل منه، والحاكم بين المتنازعين كتاب الله وسنة رسوله، وما كان هو عليه وأصحابه.

فأما أن يحكم ذوق أحد وحاله ووجده، ويجعل إماما وقدوة بلا برهان من الله ورسوله، فهذا منشأ الضلال، وهو من أكبر أسباب البعد من الله ومقته؛ فإن الله لا يتقرب إليه إلا بما يحبه ويرضاه، لا بما يذوقه كل أحد ويستحسنه ويهواه. وكيف يليق بمن يدعى محبة الله وإرادته أن يتقرب إليه بما لم يشرعه على لسان حبيبه، وبما لا يحبه ويرضاه من القول والعمل والهدى؟ وهل هذا إلا عين البعد عنه؟!

وقد قال غير واحد من السلف: ادعى قوم محبة الله تعالى، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]. فلم يقل فارقصوا وغنوا واطربوا على صوت المزامير والشَّبَّابات والألحان المطربات بالتوقيعات والنغمات، فمن أضل سبيلا ممن يدعى محبة الله، ويزعم أنه يتقرب إليه بهذا السماع الشيطانى، الذى هو حظ النفس والشيطان.

من أجازوا السماع اشترطوا له شروطا:

الوجه الثامن: إننا نناشدكم الله، هل تدخلون فى السماع بالشروط التى شرطها من أباحه ممن قلدتموه، فإنهم شرطوا فيه شروطا مذكورة فى كتب القوم.

منها: أن لا يتكلفوا السماع، وقالوا من تكلفه فتن به، ومن صادفه استراح به، فأخبروا أنه فتنة لمن اختاره وقصده، وراحة لمن صادفه اتفاقا، وهذا من أَبْيَنِ شىء على أنه ليس بقربة ولا طاعة؛ لأن قصد الطاعات والقرب وإرادتها لا يكون فتنة بل لا تصح إلا بذلك.

ومنها: أن يدخله بقلب مملوء بربه، فارغ من شهواته وحظوظه، وذكر الله فيه فى محل الخطرات والوساوس، وقد ملك عليه ذكر ربه وساوسه وخطراته.

ومنها: أن يقعد بوابا على باب قلبه، ويحرسه من السماع للنفس والشيطان، بل يكون سماعه مجردا لله ولعبوديته.

ومنها: أن يحفظ قلبه فى السماع من طوارق الغفلة عن الله والتفاته إلى سواه.

ومنها: أن يتلقى ما يرد عليه من إشارة السماع، بمطالبة نفسه بحقوق العبودية، من تجريد التوحيد والإنابة إلى الله، وتعليق الهم كله به، ولوم النفس فى إيثارها بحضها على مرضاته ومحابه[1].

و منها: أن يكون فى سماعه هذا لله وبالله ومع الله، ليكون له نصيب وافر من قوله[2].. يسمع.

ومنها: أن يخلو السماع ممن لا تؤمن الفتنة به، ممن لا يحل سماع صوته والتلذذ بالنظر إليه[3].

فبهذه الشروط أباح السماع من أباحه من القوم وحضروه، ثم قال عارف القوم سيدهم بلا مدفع الشيخ عبد القادر الجيلانى بعد ذكره آداب السماع: «ولو صدق القوم فى قصدهم وتجردهم وتصوفهم، لما انزعجوا فى قلوبهم وجوارحهم بغير سماع كتاب الله عز وجل، إذ هو كلام محبوبهم وصفته، وفيه ذكره وذكرهم، وذكر الأولين والآخرين، والماضين والغابرين، والمحب والمحبوب، والمريد والمراد، وعتاب المدعين لمحبته، ولومهم وغير ذلك، فلما اختل قصدهم وصدقهم، وظهرت دعواهم من غير بينة، وزورهم وقيامهم مع الرسم والعادة، من غير غريزة باطنة وصدق السريرة، والمعرفة والمكاشفة والعلوم الغريبة، والاطلاع على الأسرار، والقرب والأنس، والوصول إلى المحبوب، والسماع الحقيقى وهو القرآن والحديث والكلام الذى سنه الله مع العلماء به، والخُلَّص من الأولياء والأبدال، والأعيان، وخلت بواطنهم من ذلك كله وقفوا مع القوَّال والأبيات والأشعار التى تثير الطباع، وتهيج ثائرة العشق بالطباع لا بالقلوب والأرواح»[4]. فهذا كلام من خبر السماع، وعلم ما فيه من الآفات.

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين (٢/ ٣٠١ - ٣٠٦).

(٢) المعنى غير واضح لسقوط كلمة مكان النقط بالأصل على ما قال محقق المطبوعة.

(٣) انظر: عوارف المعارف - ملحق بإحياء علوم الدين ص ١١٥. طبعة دار المعرفة - بيروت.

(٤) غنية الطالب لعبد القادر الجيلانى (٢/ ١٥٧)، مع اختلاف يسير فى بعض الألفاظ.

وأما من أخذ فى إباحته واستحبابه، ومدحه من غير تعرف لآفاته، فإنه محجوب عن صلاح قلبه ومعرفة مفسداته، والفرق بين حظ النفس والشيطان وحق الرب، وهو ممن يعبد الله على ما تهواه نفسه وتحبه، لا على ما يحبه الله ويرضاه، وليس الشأن فى أنك تريد الله، بل تريد ما يريد الله[1].

أقوال العلماء الآخرين:

ونقل العلامة ابن حجر الهيتمى فى كتابه (كف الرعاع) جملة أقوال فى السماع الصوفى، منها ما قاله الإمام عز الدين بن عبد السلام:

السماع يختلف باختلاف السامعين والمسموع منهم، وهم أقسام:

أحدها: العارفون بالله، ويختلف سماعهم باختلاف أحوالهم؛ فمن غلب عليه الخوف أثر فيه سماع المخوفات وظهر أثر ما عليه من البكاء وتغير اللون والحزن، والخوف إما خوف عقاب أو فوات ثواب أو فوات الأنس والقرب، وهذا من أفضل الخائفين وأفضل السامعين، فمثله لا يتصنع ولا يصدر منه إلا ما غلب من آثار الخوف، وهذا إذا سمع القرآن كان تأثيره فيه أشد من تأثير الإنشاد والغناء.

الثانى: من غلب عليه الوجد فهذا يؤثر فيه ذكر الواجبات، فإن رجا للأنس القرب كان سماعه أفضل من كل سماع أو للثواب فهو مفضول.

الثالث: من غلب عليه الحب للإنعام عليه فيؤثر فيه ذكر ذلك، أو للتعظيم والإجلال، وهذا أفضل الأقسام.

ويختلف هؤلاء فى المسموع منه؛ فالسماع من الأولياء أكثر تأثيرا من السماع من الجهلة، ومن الأنبياء أشد تأثيرا من الأولياء، ومن رب الأرض والسماء أشد تأثيرا من الأنبياء، ولهذا لم يشتغل النبيون والصديقون وأصحابهم بسماع الملاهى والغناء واقتصروا على سماع كلام ربهم.

---

(١) كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء لابن القيم بتحقيق ربيع أحمد خلف ص ٧٤ - ٨٧.

وأما من يغلب عليه هوى مباح كعشق حليلته فهو يهيجه السماع ويؤثر فيه آثار الشوق وخوف الفراق فسماعه لا بأس به.

وأما من يغلب عليه هوى محرم كعشق أمرد أو أجنبية، فهذا يهيجه السماع إلى السعى إلى الحرام وما أدى إلى الحرام حرام. ومن قال: لا أجد فى نفسى شيئا من الأقسام الستة، فالسماع فى حقه مكروه قال الهيتمى: وخالفه الغزالى فقال: إنه مباح، وسنعود لكلام ابن عبد السلام بعد.

قال الأذرعى: ولأبى القاسم القشيرى - وهو من أئمة الشافعية - مصنف فى السماع، ذكر فيه: أن من شرائطه معرفة الأسماء والصفات ومدلولاتها وما يليق بالحق تعالى منها، هذا على لسان أهل التحصيل من ذوى العقول. أما على لسان أهل الحقائق فمن شرائطه بقاء النفس بصدق المجاهدة، ثم حياة القلب بروح المشاهدة؛ فمن لم يقيد بالصحة معاملته، ولم يحصل بالصدق منازلته، فسماعه ضياع له وتواجده طباع، والسماع فتنة يدعو إليها استيلاء العشق إلا عند سقوط الشهوة، وحصول الصفوة.. وأطال بما يطول ذكره. قال الأذرعى: وبما ذكره تبين تحريم السماع والرقص على أكثر متصوفة الزمان، لفقد شروط القيام بآدابه أهـ[1].

قال ابن حجر الهيثمى: ووقع لبعض من لا تحقيق له أنه أنكر سماع الغناء من غير تفصيل، وليس كما زعم، ومن ثم قال أبو طالب المكى: من أنكره أنكر على سبعين صديقا! وأراد بالسبعين الكثرة وإلا فالصديقون وهم العلماء المبيحون له بشرطه الآتى لا ينحصرون.

قال الإمام السهروردى هنا: المُنْكِر إما جاهل بالسنن والآثار، وإما جاهل الطبع لا ذوق له، وأشار بالسنن إلى ما صح عنه ﷺ أنه كان له شعراء يصغى إليهم فى المسجد وغيره، منهم: حسان وابن رواحة رضى الله تعالى عنهما، واستنشد أمية بن الصلت واستمع إليه، كما فى مسلم.

---

(١) كف الرعاع عن محرمات اللهو والسماع لابن حجر الهيتمى ملحق بـ(الزواجر) له ص ٢٧٤.

ومن ثم قال العز بن عبد السلام فى تفسيره: وأما الأشعار والتشبيهات فمأذون فيها، وقد أنشد كعب رضى الله عنه عند رسول الله ﷺ: بانت سعاد القصيدة المشهورة فاستمعها، ولم ينكر عليها شيئا، وفيها الاستعارات والتشبيهات، حتى شبه الريقة بالخمرة وكانت حرمت، ولكن تحريمها لم يمنع عندهم طيبها، بل تركوها مع الرغبة فيها والاستحسان بها، وكان ذلك أعظم لأجرها أهـ.

وقال ابن عبد البر: لا ينكر الحسن مع الشعر أحد من أهل العلم، ولا من أولى النهى، وليس أحد من كبار الصحابة وأهل العلم وموضع القدوة إلا وقد قال الشعر، أو تمثل به، أو سمعه فرضيه، وما كان حكمة أو مباحا، ولم يكن فيه فحش ولا هجاء ولا أذى لمسلم.

وقال غيره: ومازال العلماء قديما وحديثا على إيداع أشعارهم تلك التشبيهات والاستعارات فى الخمر وغيرها. حتى حكى البدر الزركشى عن الشيخ الإمام أبى إسحاق الشرازى – وناهيك به زهدا وعلما – أنه أنشد بعض الرؤساء:

ذهب الشتا وتصرف البرد وأتى الربيع وأقبل الورد

فاشرب على وجه الحبيب به صهباء ليس لمثلها ردّ

فقال ذلك الرئيس: أدام الله أيام الشيخ قد أبحت الخمر! فقال: إنما أردت خمر الجنة.

وروى الدارقطنى والحاكم والبيهقى «أنه ذكر عند رسول الله ﷺ الشعر فقال: هو كلام، حسنه حسن وقبيحه قبيح».

وقد جمع الإمام الطبرانى جزءا حافلا فى غزل التابعين وتابعيهم، وذكر هو وغيره عن جماعة كثيرين من الصحابة أنهم سمعوه ولم ينكروه، والقاضى شريح والزبير بن بكار فى روضتيهما، وعبد الله بن المبارك فى مرثيته من الغزل الكثير ما يتعجب منه، وكذا الشافعى رضى الله عنه.

وفى (الإحياء): التشبيه بوصف الخدود والاصداغ وحسن القدّ والقامة وسائر أوصاف النساء فيه نظر، والصحيح أنه لا يحرم نظمه ولا إنشاده بصوت ولا بغير صوت، وعلى المستمع أن لا ينزله على امرأة معينة، فإن نزله على زوجته جاز، وإن نزله على أجنبية فهو العاصى بالتنزيل، ومن هذا وصفه فينبغى أن يتجنب السماع.

وفى (التهذيب): إن كان التشبيب فى امرأة معينة فسق، وإلا فلا، إذ ليس فى مجرد التشبيب بالمجهول ما يدل على نظر ولا عشق، بل الغالب أن القصد به ترقيق الشعر وإظهار الصنعة.

قال الأذرعى: الذى يجب القطع به: أن تسمية من لا يُدْرَى من هى. وذكر محاسنها الظاهرة، والشوق والمحبة من غير فحش ولا ريبة، لا يقدح فى قائله. ولا يتحقق فيه خلاف، ومن ذلك تعارف الشعراء على ذكر ليلى وسلمى وسعدى والرباب وهند وغير ذلك.

يحرم سماع الغناء من حرة أو أمة أجنبية بناء على قول عندنا أن صوت المرأة عورة، سواء أخاف فتنة بها أم لا، وكلام الشيخين فى الروضة وأصلها فى ثلاث مواضع يقتضى أن هذا هو الراجح فى المذهب. نقل القاضى أبو الطيب إمام أصحابنا عن الأصحاب: ولو من وراء حجاب، وصرح بالتحريم القاضى الحسين أيضا، وادعى أنه لا خلاف فيه مستدلا بالحديث الصحيح «من استمع إلى قينة صب فى أذنيه الآنك» أى الرصاص المذاب.

قال الأذرعى: ولو لم يكن المغنى والمغنية محل الفتنة، ولكن استماع الغناء منه يبعث على الافتتان بغيره من الناس فهو حرام، لما فيه من الخبث وتحريك القلب الخرب إلى ما يهواه، لا سيما أهل العشق والشغف ومن يشتغل بصورة خاصة. وهذا واضح لا ينازع فيه منصف أهـ. وأما على أن صوتها غير عورة وهو الأصح فلا يحرم إلا إذا خشى فتنة.

قال الأذرعى: ومحله غير الغناء الملحن بالنغمات الموزونة مع التخنث

والتغنج كما هو شأن المغنيات، أما هذا ففيه أمور زائدة على مطلق سماع الصوت فيتجه التحريم هنا، وإن قلنا إن صوتها غير عورة، ويجب أن يكون محل الخلاف فى صوت غير مشتمل على ذلك التحريم بخلاف المشتمل عليه، لأنه يحث على الفسوق كما هو مشاهد[1].

رأى عز الدين بن عبد السلام:

ولعل أعدل من عرض لموضوع الغناء الصوفى هو الإمام عز الدين بن عبد السلام، كما نقله عنه العلامة الألوسى فى تفسيره (روح المعانى) قال:

وسئل العز بن عبد السلام عن استماع الإنشاد فى المحبة والرقص فقال: الرقص بدعة لا يتعاطاه إلا ناقص العقل فلا يصح إلا للنساء. وأما استماع الإنشاد المحرك للأحوال السنية وذكر أمور الآخرة، فلا بأس به، بل يندب عند الفتور وسآمة القلب، ولا يحضر السماع من فى قلبه هوًى خبيث، فإنه يحرك ما فى القلب.

وقال أيضاً: السماع يختلف باختلاف السامعين والمسموع منهم.

وهم إما عارفون بالله تعالى، ويختلف سماعهم باختلاف أحوالهم.

ومن غلب عليه الخوف: أثر فيه السماع، عند ذكر المخوفات نحو حزن وبكاء، وتغير لون، وهو إما خوف عقاب، أو فوات ثواب، أو أنس وقرب، وهو أفضل الخائفين والسامعين، وتأثير القرآن فيه أشد.

ومن غلب عليه الرجاء: أثر فيه السماع، عند ذكر المطمعات والمرجِّيات، فإن كان رجاؤه للأنس والقرب، كان سماعه أفضل سماع الراجين، وإن كان رجاؤه للثواب فهذا فى المرتبة الثانية، وتأثير السماع فى الأول أشد من تأثيره فى الثانى.

ومن غلب عليه حب الله تعالى لإنعامه، فيؤثر فيه سماع الإنعام والإكرام،

---

(١) انظر: كف الرعاع عن محرمات اللهو والسماع لابن حجر الهيتمى ملحق بـ(الزواجر) له ص ٢٧٥، ٢٧٦.

أو لجماله سبحانه وهو المطلق، فيؤثر فيه ذكر شرف الذات وكمال الصفات، وهو أفضل مما قبله لأن سبب حبه أفضل الأسباب، ويشتد التأثير فيه عند ذكر الإقصاء والإبعاد.

ومن غلب عليه التعظيم والإجلال، وهو أفضل من جميع من قبله.

وتختلف أحوال هؤلاء في المسموع منه، فالسماع من الولى أشد تأثيرا من السماع من عامى، ومن نبى أشد تأثيرا منه ومن ولى، ومن الرب عز وجل أشد تأثيرا فى المحب من السماع من نبى، لأن كلام المهيب أشد تأثيرا فى الهائب من كلام غيره، كما أن كلام الحبيب أشد تأثيرا فى المحب من كلام غيره، ولهذا لم يشتغل النبيون والصديقون وأصحابهم بسماع الملاهى والغناء واقتصروا على كلام ربهم جل شأنه.

ومن يغلب عليه هوى مباح، كمن يعشق حليلته، فهو يؤثر فيه آثار الشوق وخوف الفراق ورجاء التلاق، فسماعه لا بأس به.

ومن يغلب عليه هوى محرم كعشق أمرد أو أجنبية، فهو يؤثر فيه السعى إلى الحرام، وما أدى إلى الحرام فهو حرام.

وأما من لم يجد فى نفسه شيئا من هذه الأقسام الستة، فيكره سماعه، من جهة أن الغالب على العامة إنما هى الأهواء الفاسدة، فربما هيجه السماع إلى صورة محرمة، فيتعلق بها ويميل إليها، ولا يحرم عليه ذلك، لأنا لا نتحقق السبب المحرم.

وقد يحضر السماع قوم من الفجرة، فيبكون وينزعجون لأغراض خبيثة انطووا عليها، ويراؤون الحاضرين بأن سماعهم لشيء محبوب، وهؤلاء قد جمعوا بين المعصية وبين إيهام كونهم من الصالحين.

وقد يحضر السماع قوم قد فقدوا أهاليهم ومن يعز عليهم، ويذكرهم المنشد فراق الأحبة وعدم الأنس، فيبكى أحدهم، ويوهم الحاضرين أن بكاءه لأجل رب العالمين جل وعلا، وهذا مراء بأمر غير محرم.

ثم قال: اعلم أنه لا يحصل السماع المحمود إلا عند ذكر الصفات الموجبة للأحوال السنية، والأفعال الرضية، ولكل صفة من الصفات حال مختص بها، فمن ذكر صفة الرحمة أو ذكر بها كانت حاله حال الراجين وسماعه سماعهم، ومن ذكر شدة النقمة أو ذكر بها كانت حاله حال الخائفين، وسماعه سماعهم، وعلى هذا القياس.

وقد تغلب الأحوال على بعضهم بحيث لا يصغى إلى ما يقوله المنشد، ولا يلتفت إليه، لغلبة حاله الأولى عليه. انتهى وهو كلام فقيه أصولى ربانى، جمع بين عقلانية العالم الفقيه وروحانية العارف المتصوف.

قال العلامة الآلوسى فى تفسيره (روح المعانى): وقد نقله بعض الأجلة وأقره، وفيه ما يخالف ما نقل عن الغزالى.

ونقل القاضى حسين عن الجنيد قدس سره أنه قال: الناس فى السماع إما عوام وهو حرام عليهم، لبقاء نفوسهم، وإما زهاد وهو مباح لهم، لحصول مجاهدتهم، و إما عارفون وهو مستحب لهم، لحياة قلوبهم. وذكر نحوه أبو طالب المكى، وصححه السهروردى عليه الرحمة فى عوارفه.

قال: والظاهر أن الجنيد أراد بالحرام معناه الاصطلاحى.

واستظهر بعضهم أنه لم يرد ذلك، وإنما أراد أنه لا ينبغى. ونقل بعضهم عن الجنيد قدس سره: أنه سئل عن السماع فقال: هو ضلال للمبتدى، والمنتهى لا يحتاج إليه، وفيه مخالفة لما سمعت.

وقال القشيرى رحمه الله تعالى: إن للسماع شرائط، منها: معرفة الأسماء والصفات ليعلم صفات الذات من صفات الأفعال، وما يمتنع فى نعت الحق سبحانه، وما يجوز وصفه تعالى به، وما يجب، وما يصح إطلاقه عليه عز شأنه من الأسماء وما يمتنع، ثم قال: فهذه شرائط صحة السماع على لسان أهل التحصيل من ذوى العقول، وأما عند أهل الحقائق، فالشرط فناء النفس بصدق المجاهدة، ثم حياة القلب بروح المشاهدة، فمن لم تتقدم بالصحة معاملته، ولم تحصل بالصدق منازلته، فسماعه ضياع، وتواجده طباع، والسماع فتنة يدعو

إليها استيلاء العشق إلا عند سقوط الشهوة، وحصول الصفوة، وأطال بما يطول ذكره.

تعقيبات الآلوسي:

قال العلامة الألوسي: وبه يتبين تحريم السماع على أكثر متصوفة الزمان لفقد شروط القيام بأدائه.

قال الألوسي: وأنا أقول: قد عمت البلوى بالغناء والسماع، في سائر البلاد والبقاع، ولا يتحاشى من ذلك في المساجد وغيرها، بل قد عين مغنون على المنائر، في أوقات مخصوصة شريفة، بأشعار مشتملة على وصف الخمر والحانات، وسائر ما يعد من المحظورات، ومع ذلك قد وظف لهم من غلة الوقف ما وظف، ويسمونهم الممجدين، ويعدون خلو الجوامع من ذلك من قلة الأكتراث بالدين، وأشنع من ذلك ما يفعله أبالسة المتصوفة ومردتهم! ثم إنهم قبحهم الله تعالى إذا اعترض عليهم بما اشتمل عليه نشيدهم من الباطل يقولون: نعني بالخمر المحبة الإلهية، وبالسكر غلبتها، وبمية، وليلى، وسعدى مثلا: المحبوب الأعظم وهو الله عز وجل، وفي ذلك من سوء الأدب ما فيه ﴿**وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ**﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وفي (القواعد الكبرى) للعز بن عبد السلام: ليس من أدب السماع أن يشبه غلبة المحبة بالسكر من الخمر، فإنه من سوء الأدب، وكذا تشبيه المحبة بالخمر؛ لأن الخمر أم الخبائث، فلا يشبه ما أحبه الله تعالى بما أبغضه، وقضى بخبثه ونجاسته، فإن تشبيه النفيس بالخسيس من سوء الأدب بلا شك فيه، وكذا التشبيه بالخصر والردف ونحو ذلك من التشبيهات المستقبحات. ولقد كره لبعضهم قوله: أنتم روحي ومعلم راحتي، ولبعضهم قوله: فأنت السمع والبصر، لأنه شبه من لا شبيه له بروحه الخسيسة، وسمعه وبصره اللذين لا قدر لهما.

ثم إنه – وإن أباح بعض أقسام السماع – حط على من يرقص ويصفق عنده فقال: أما الرقص والتصفيق فخفة ورعونة، مشبهة برعونة الإناث، لا يفعلها إلا

أرعن أو متصنع كذاب، وكيف يأتى الرقص المتزن بأوزان الغناء ممن طاش لبه وذهب قلبه، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»(١) ولم يكن أحد من هؤلاء الذين يقتدى بهم يفعل شيئا من ذلك، وإنما استحوذ الشيطان على قوم يظنون أن طربهم عند السماع إنما هو متعلق بالله تعالى شأنه، ولقد مالوا فيما قالوا، وكذبوا فيما ادعوا، من جهة أنهم عند سماع المطربات وجدوا لذتين: إحداهما: لذة قليل من الأحوال المتعلقة بذى الجلال. والثانية: لذة الأصوات والنغمات والكلمات والموزونات الموجبات للذات، وليست من آثار الدين ولا متعلقة بأموره، فلما عظمت عندهم اللذات غلطوا، فظنوا أن مجموع ما حصل لهم إنما حصل بسبب حصول ذلك القليل من الأحوال، وليس كذلك، بل الأغلب عليهم حصول لذات النفوس التى ليست من الدين فى شىء.

وقد حرم بعض العلماء التصفيق لقوله عليه الصلاة والسلام «إنما التصفيق للنساء»(٢) ولعن رسول الله ﷺ المتشبهات من النساء بالرجال والمتشبهين من الرجال بالنساء، ومن هاب الإله وأدرك شيئا من تعظيمه لم يتصور منه رقص ولا تصفيق، ولا يصدران إلا من جاهل.

ويدل على جهالة فاعلهما: أن الشريعة لم ترد بهما فى كتاب ولا سنة، ولم يفعل ذلك أحد من الأنبياء، ولا معتبر من أتباعهم، وإنما يفعل ذلك الجهلة السفهاء، الذين التبست عليهم الحقائق بالأهواء؛ وقد قال تعالى: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ**﴾ [النحل: ٨٩].

وقد مضى السلف، وأفاضل الخلف، ولم يلابسوا شيئا من ذلك، فما ذاك إلا غرض من أغراض النفس، وليس بقربة إلى الرب جل وعلا، وفاعله إن كان ممن

---

(١) متفق عليه عن ابن مسعود وعن عمران بن حصين. كما فى اللؤلؤ والمرجان (١٦٤٦، ١٦٤٧).

(٢) روى أحمد ومسلم وأبو داود عن جابر: «التسبيح للرجال والتصفيق للنساء» صحيح الجامع الصغير (٣٠١٥).

يقتدى به، ويعتقد أنه ما فعله إلا لكونه قربة، فبئس ما صنع، لإيهامه أن هذا من الطاعات، وإنما هو من أقبح الرعونات.

وأما الصياح والتغاشيء[1] ونحوهما فتصنع ورياء. فإن كان ذلك عن حال لا يقتضيهما فإثم الفاعل من جهتين. إحداهما: إيهامه الحال الثابتة الموجبة لهما. والثانية: تصنعه ورياؤه، وإن كان عن مقتض أثم إثم رياء لا غير. وكذلك نتف الشعور وضرب الصدور، وتمزيق الثياب محرم، لما فيه من إضاعة المال، وأى ثمرة لضرب الصدور، ونتف الشعور، وشق الجيوب، إلا رعونات صادرة عن النفوس أهـ كلامه.

ونقل الألوسى عن بعض الأجلة من العلماء قوله: ومن السماع المحرم: سماع متصوفة زماننا وإن خلا عن رقص، فإن مفاسده أكثر من أن تحصى، وكثير مما يسمعونه من الأشعار من أشنع ما يتلى، ومع هذا يعتقدونه قربة، ويزعمون أن أكثرهم رغبة فيه أشدهم رغبة أو رهبة، قاتلهم الله تعالى أنى يؤفكون.

ولا يخفى على من أحاط خبرا بما تقدم عن القشيرى وغيره. أن سماعهم مذموم عند من يعتقدون انتصاره لهم، ويحسبون أنهم وإياه من حزب واحد، فويل لمن شفعاؤه خصماؤه، وأحباؤه أعداؤه، وأما رقصهم عليه فقد زادوا به فى الطنبور رنة، وضموا - كسر الله تعالى شوكتهم - بذلك إلى السفه جنة، وقد أفاد بعض الأجلة لأنه لا تقبل شهادة الصوفية الذين يرقصون على الدف الذى قيل: يباح أو يسن ضربه لعرس وختان وغيرهما من كل سرور، ومنه قدوم عالم ينفع المسلمين، رادا على من زعم القبول فقال: وعن بعضهم: تقبل شهادة الصوفية الذين يرقصون على الدف، لاعتقادهم أن ذلك قربة، كما تقبل شهادة حنفى شرب النبيذ، لاعتقاده إباحته، وكذا كل من فعل ما اعتقد إباحته أهـ، ورد بأنه خطأ قبيح، لأن اعتقاد الحنفى نشأ عن تقليد صحيح، ولا كذلك غيره، وإنما منشؤه الجهل والتقصير، فكان خيالا باطلا لا يلتفت إليه أهـ.

---

(١) السقوط مغشيا عليه متصنعا.

ثم إنى أقول (والقائل الألوسى) : لا يبعد أن يكون (صاحب حال) يحركه السماع، ويثير منه ما يلجئه إلى الرقص، أو التصفيق، أو الصعق والصياح، وتمزيق الثياب، أو نحو ذلك، مما هو مكروه أو حرام. فالذى يظهر لى فى ذلك: أنه إن علم من نفسه صدور ما ذكر كان حكم الاستماع فى حقه حكم ما يترتب عليه. وإن تردد فيه فالأحوط فى حقه – إن لم نقل بالكراهية – عدم الاستماع. ففى الخبر « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » ثم إن من حصل له شىء من ذلك بمجرد السماع من غير قصد، ولم يقدر على دفعه أصلا، فلا لوم ولاعتاب فيه عليه، وحكمه فى ذلك حكم من اعتراه نحو عطاس وسعال قهريين.

ومن الناس من يعتريه شىء مما ذكر عند سماع القرآن إما مطلقا أو إذا كان بصوت حسن، وقلما يقع ذلك من سمع القرآن أو غيره لكامل. وعن عائشة رضى الله تعالى عنها أنه قيل لها: إن قوما إذا سمعوا القرآن صعقوا فقالت: القرآن أكرم من أن يسرق منه عقول الرجال، ولكنه كما قال الله تعالى: ﴿ **تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ** ﴾.

وكثيرا ما يكون لضعف تحمل الوارد، وبعض المتصنعين يفعله رياء.

وعن ابن سيرين أنه سئل عمن يسمع القرآن فيصعق فقال: ميعاد ما بيننا وبينهم: أن يجلسوا على حائط فيقرأ عليهم القرآن من أوله إلى آخره، فإن صعقوا فهو كما قالوا[1].

وبعد أن أطال العلامة الألوسى البحث والنقاش ونقل الخلاف فى الغناء وحكمه وخصوصا مع الآلات قال: ثم إنك إذا ابتليت بشىء من ذلك فإياك ثم إياك أن تعتقد أن فعله أو استماعه قربة، كما يعتقد ذلك من لا خلاق له من المتصوفة، فلو كان الأمر كما زعموا لما أهمل الأنبياء أن يفعلوه، ويأمروا أتباعهم به، ولم ينقل ذلك عن أحد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولا أشار إليه كتاب من الكتب المنزلة من السماء، وقد قال الله تعالى: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ**

---

(١) روح المعانى للآلوسى ج٢١ ص ٧١ – ٧٥.

دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، ولو كان استعمال الملاهي المطربات أو استماعها من الدين، ومما يقرب إلى حضرة رب العالمين، لبينه ﷺ وأوضحه كمال الإيضاح لأمته، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «والذى نفسى بيده ما تركت شيئا يقربكم من الجنة ويباعدكم عن النار إلا أمرتكم به وما تركت شيئا يقربكم من النار ويباعدكم عن الجنة إلا نهيتكم عنه»(١).

ألوان من الغناء الدينى لا غبار عليها:

هناك من الغناء الدينى ما لا ينبغى الخلاف فى مشروعيته. وذلك مثل بعض الأغانى التى فيها تمجيد لله تعالى، وذكره وتعظيمه والابتهال إليه، فالتغنى بذكر الله والثناء عليه فى مناسبته أمر مقبول وممدوح.

وذلك كمن يناجى الله تعالى بصوت رخيم:

يا من ألوذ به فيما أومله ... ومن أعوذ به مما أحاذره

لا يجبر الناس عظما أنت كاسره ... ولا يهيضون عظما أنت جابره

أو من يتغنى بقول أبى نواس:

إن كان لا يرجوك إلا محسن ... فبمن يلوذ ويستعيذ المجرم؟

مالى إليك وسيلة إلا الرجا ... وجميل عفوك ثم أنى مسلم!

أو قول الآخر:

فليت الذى بينى وبينك عامر ... وبينى وبين العالمين خراب

وليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب

إذا صح منك الود فالكل هين ... وكل الذى فوق التراب تراب

التغنى بمثل هذه الأذكار والابتهالات والمناجيات لله تعالى لا يشك مسلم فى جوازها، وخصوصا إذا كانت فى غير المساجد، وغير مقترنة بالعبادة، ولا الآلات.

---

(١) روح المعانى للألوسى ج٢١ ص ٧٩.

ومما يدل لجوازها: أن الصحابة كانوا ينشدون الأشعار فى مناسبات معينة، مثل بناء مسجده ﷺ، وحفر الخندق فى غزوة الأحزاب.

ومثل ذلك: المدائح النبوية، التى تشتمل على مدح سيدنا وإمامنا وأسوتنا وحبيبنا ومعلمنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه. من شعر حسان قديما، أو من شعر البوصيرى فى بردته[1]، أو همزيته، أو من شعر شوقى فى نهج البردة أو الهمزية وغيرهما.

والذى سن هذه السنة هن جوارى المدينة المنورة وبناتها، فى أناشيدهن العذبة المحفوظة والمتداولة:

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوادع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع

وكذلك قولهن:

نحن جوار من بنى النجار ... يا حبذا محمد من جار

ومما يدخل فى الغناء الدينى: شعر الأناشيد الدينية الحماسية، التى كثيرا ما لا يغنيها فرد واحد، بل تغنيها مجموعة بصوت واحد، وهذه لها أثرها فى تقوية عزائم الأبطال فى الجهاد والحروب، والتحريض على الثبات والاستشهاد، أو حث الشباب على الاستمساك بعرا الإسلام، والوقوف فى وجه أعداء الإسلام، وإن عظمت التضحيات.

ولا غرو أن وجدنا أشعارا كثيرة كان يتغنى بها الأبطال فى ميدان القتال، يستنهضون بها الهمم، وينشطون بها النفس، مثل ما كان ينشده عبد الله بن رواحة فى قتاله للروم فى مؤتة:

---

(١) إلا ما كان عليه اعتراض منها: مثل قوله:

يا أكرم الخلق مالى من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم
فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

لما فيها من غلو أنكر النبى ﷺ مثله، بل أقل منه.

ياحبذا الجنة واقترابها طيبة وبارد شرابها
والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيدة أنسابها
علىّ إذ لاقيتها ضرابها

ولهذا ابتكر الشعراء والأدباء فى عصرنا أناشيد إسلامية توقد الحماس فى صدور الشباب، وتشد عزائمهم للعمل والجهاد فى سبيل الله، والدعوة إلى دينه.

مثل نشيد العروبة الذى أنشأه أديب العربية والإسلام مصطفى صادق الرافعى:

ربنا إياك ندعو ربنا آتنا النصر الذى وعدتنا
إننا نبغى رضاك، إننا ما ارتضينا غير ما ترضى لنا

ومثل نشيد (الله أكبر) الذى أنشأه عبد الله شمس الدين أيام العدوان الثلاثى على مصر، وكان له - بتلحينه وأداء المجموعة له - تأثير قوى هز ضمائر الناس، وحرك مشاعرهم.

ومثل نشيدنا (مسلمون، مسلمون، مسلمون) الذى أنشأته لأثير الاعتزاز بالإسلام فى وقت كان الناس يعتزون بالقوميات.

مسلمون، مسلمون، مسلمونْ حيث كان الحق والعدل نكون
نرفض الموت ونأبى أن نهون فى سبيل الله ما أحلى المنون
نحن صممنا وأقسمنا اليمين أن نموت أو نعيش مسلمين
مستقيمين على الحق المبين متحدّين ضلال المبطلين
جاهدين أن يسود المسلمون

سائلوا التاريخ عنا ما دعى من حمى حق فقير ضيعا
من بنى للعلم صرحا أرفعا من أقام الدين والدنيا معا
سائلوه سيجيب: المسلمون

ومما يؤسف له: ما سمعتُه أن مجموعة من الشباب فى إحدى الجامعات الإسلامية خرجوا فى يوم إجازة إلى رحلة جماعية، فأنشدوا بعض هذه الأناشيد التى أيقظت أرواحهم، ونبهت عقولهم، فما كان من بعض إخوانهم إلا أن اعترضوا عليهم قائلين: هذه بدعة!! مع أن الصحابة سبقوهم بمثل هذا الإنشاد ولو لم يسبقوهم لكانت (نعمت البدعة هذه) كما قال عمر رضى الله عنه فى جمع الناس على صلاة التراويح!

* * *

obeikandl.com